كتابات محمد أبي سمرا

نصوص وشهادات

وضاح شرارة "مترجماً"رعب العروبة والإسلام من النساء

محمد أبي سمرا

جريدة النهار قي 10-01-2015

في كتابه "ترجمة النساء" – "دار رياض الريس" بيروت، 2015 – يؤلف وضاح شرارة "حواشٍ" فلسفية وأنثربولوجية ثقافية واجتماعية "على أخبار النساء وأحوالهن" في ثقافة العرب والإسلام وفي الثقافة الغربية. مادة "الترجة" غزيرة، واسعة، ومتنوعة: من نينلوبه في القصص الملحمي الهوميري اليوناني، الى شهرزاد "ألف ليلة وليلة". ومن أخبار النساء في كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، الى ساحرات المؤرخ الفرنسي جول ميشليه في القرن التاسع عشر، والحركة النسوية الأوروبية الصادرة عن الحركة الشبابية والاجتماعية لأيار 1968 الأوروبي. ومن أشعار أبي نواس الماجنة التي تخلط الشعر بالرغبة، الى "الحداثة والمرأة" في نقد بودلير الفني. ومن حركة الراهبة هندية التي هزّت الكنيسة والرعايا الموارنة في القرن الثامن عشر، الى حركة الشيخ سليمان البنهاوي الهسيترية والصوفية في مصر بدايات القرن التاسع عشر. ومن سلمان رشدي وأدب الشيطنة والفتوى الخمينية لقتله، الى "رجال" الرسامة اللبنانية ريم الجندي.

****

في الفصل الأول "ذوات الفروج يركبن السروج: قوة شهوات النساء"، جمع شرارة 22 خبراً عنهن وردت في مؤلف الأصبهاني الموسوعي الكبير "الأغاني" الذي يضم 25 مجلداً. بعد روايتها وتصنيفها، اتخذ كاتب "ترجمة النساء" من هذه الاخبار مثالاً ودليلاً في تأويله حضورهن وأحوالهن وأدوارهن وأفعال شهوتهن ورغبتهن في الاجتماع والمخيلة العربية والإسلامية. فأخبار الأصبهاني تجمع "أيام" العرب "وحروب القبائل والعصبيات، قبل الإسلام وبعده (وثُلمٌ) بأخبار البوادي والأمصار (المدن) العراقية والفارسية والشامية وبعض التركية (...) الى ابتداء الثلث الثالث من القرن الرابع الهجري"، الذي يوافق أواسط القرن العاشر الميلادي. وهي تغطي، إذاً، كحال أخباره عن النساء، مساحة زمنية ومكانية واسعة من تاريخ الديار العربية والإسلامية.

أخبار النبوّة وأخبار النساء

قبل روايتها وتعليقه عليها، يقدّم شرارة لأخبار النساء الأصبهانية، فيرى أن صاحبها يرويها "على مثال المحدّث الثقة" في خَبره عن "الحوادث" و"الأنساب" و"الرسوم" التي "تقوم مقام الركن والتعريف من الجماعات" في ديار العرب والإسلام. بل إن مثال أخبارهن هو "الآثار (أي الأحاديث) المتخلّفة عن النبي والصحابة والتابعين والخالفين"، كما أنها "تنعقد على معانٍ ودلالات وعِبرٍ" و"أقيسة" (جمع قياس) و"صور"، نسيجها وبطانتها ومنوالها الأحاديث النبوية نفسها، و"القصص البطولي العربي" و"السيرة النبوية المحمدية". وهذه كلها، "آثار وسِنن معاً"، ما دامت "تنزل منزلة معيار العمل وميزانه" وأحكامه في السوك والاجتماع، فتبيّن "عما يجب عمله وعما يُنهى عن إتيانه". أما "مصدر هذه الآثار والسنين والأحكام، فهو "امرؤ أو إنسان (النبي أو البطل) خارج عن القياس والميزان". وخروجه هذا إنما هو "الدليل على نبوّته" و"انفراده"، و"معنى تأييده الإلهي بالمعجز".

مادة أخبار النساء الأصبهانية، إذاً، وما تنقله أو ترويه من حوادث، وكذلك تركيبها وبناؤها الإخباريان، وما تنطوي عليه من تخييل اجتماعي ومن أحكام عمل في الاجتماع وقيمه، لا تختلف عن سواها من أخبار لأصبهاني في "الأغاني"، بوصفها من أحاديث الأولين وأخبارهم وسيرهم البطولية، أي النبي والصحابة والمحدثين أو الناقلين الرواة عنهم. وهي، أي أخبار النساء، شأن أحاديث النبي والصحابة ورواة أحاديثهم وسيرهم، تندرج في باب

"الأصول" التي يُبنى عليها ويُستَنُّ، وتُحاكى وتُقلّدُ، كما أنها عظيمة الحضور والفعل في الاجتماع والتخييل الاجتماعي في ديار العرب والإسلام.

يميز وضاح شرارة بين نوعين من أخبار النساء الأصبهانية: أخبار "معجزة" تتناول "نساء قديمات يرقين الى وقت يسبق النبوة أو يأتي بعدها بقليل"، وأخبار "انسيّة" أو "عادية" تتناول نساء "عاشقات ومشتهيات"، وتدور على "وجوه سائرة ويومية من حياة النساء". كما "يدور معظمها على الأهل" و"أحكامهم في النساء"، فيما "يدور بعضها على مشاهد من حياة المدن الاسلامية والعربية، في الصدر الأول وفي عهدي الدولتين الأموية والعباسية".

أخبار النساء الاصبهانية لاتختلف عن الأحاديث والسيرة النبوية المحمدية، ولاعن القصص البطولي العربي والإسلامي. ثم إن التعليق عليها، والكشف عن دلالاتها، واقتفاء آثارها وافعالها وأحكامها، وتأويلها، يمكن ان يكون مثالا يحتذى في التعليق على الأحاديث والسيرة النبوية والقصص البطولي إياها، وفي الكشف عن دلالاتها وآثارها وافعالها وأحكامها المديدة، المتدافعة والمحوَّرة والمتلونة، في أزمنة التاريخ والاجتماع والثقافية والتخييل العربية والإسلامية.

الوأد تداركاً للسبي

في اخبار النساء الاصبهانية خبر عن وأد البنات الذي كان في الجاهلية "مثالاً يحتذى" و"سنة". لكن قدر كونهما قويّي الحضور ومرغوبين – تداركاً او استباقاً للفضيحة جراء سبي النساء في المغازي التي كانت في منزلة الكينونة من "ايام" العرب واجتماعهم – فإنهما (أي مثال الوأد وسنّته) كانا ايضاً إفتراضيين وكاذبين، والا لانقرض العرب بانقراض بناتهم الموؤودات جميعا. هذا من دون أن يقلّل الافتراض والكذب من قوة حضور المثال وسنّته: حدّث فارس شجاع الرسولَ مفاخراً بوأده بناته، ومنهم ابنة له دفعتها امها الى اخوالها اثناء سفره، فلما عاد منه حفر للابنة حفرة وجعل يطمرها فيها. وروى للنبي ان ابنته جعلت تقول: "أمغطِّيّ بالتراب أنت يا ابتِ؟ أتاركي وحدي ومنصرف عني؟"، فتابع الرجل الفارس روايته قائلا: "جعلتُ أقذف عليها التراب حتى واريتها وانقطع صوتها". فدمعت عينا النبي ثم قال: "ان هذه لقسوة، وان من لا يَرحم لا يُرحم".

ألا تشبه الصيغتان، اللغوية والقصصية، في هذا الخبر الاصبهاني، القصص القرآني؟ والمثال في هذا الخبر، أي الوأد، ألم يمارسه قبل مدة قصيرة تنظيم "الدولة الاسلامية"، حسبما بثّ في شريط على شبكة الانترنت، يصور رجلاً يرجم ابنته "الزانية" في حضور أحد "امراء" التنظيم؟ لكن المرأة المرجومة في الشريط – على خلاف الابنة الموؤدة في خبر الاصبهاني – استدرجت والدها الى رجمها، ولم تطلب الصفح والرحمة، حينما سئلت إن كانت تطلبهما. فهي صامتة تقبلت مصيرها، فيما الحجار تنهال على جسمها في الحفرة.

الحيض القاتل المدمر

في خبر آخر من اخبار الأصبهاني عن النساء، لا تكاد البنت تحيض وتنتصب للزواج والولادة، حتى يُخرجها أهلها منهم ومن بيتهم الى "الرّبض، وهو الارض حول المدينة" وفي خارجها. وفي الخبر نفسه حاصر المدينة ملك الفرس، فرأته بنت حائض أُخرجت الى الربض في ظاهر المدينة، "فعشقته وعشقها". واذ طال الحصار قالت الحائض لعشيقها الملك أن يلطّخ حمامة بحيض جارية ويرسلها الى سور المدينة فيتداعى. هكذا فتح ملك الفرس المدينة، و"أعرَسَ" بعشيقته التي "شَكَتْ من خشانة (خشونة؟) في فُرُشِها، وهي من حرير (...) فأمر الملك بأن تُضفر غدائرها بذيل فرس جموح، "ثم استركضه" فتقطعت المرأة إرباً.

فالملك، عاشق المرأة المنفيّة من اهلها وديرتها والعارية منهما، قبل فتحه مدينة اهلها، سرعان ما عامل عشيقته هذه معاملته النساء السبايا من أعدائه بعد الفتح. أما زوجة ملك آخر، وهي سُبِيت في غزوة تلتها غزوة اخرى كُتِب النصر فيها لزوجها وقومه، فاستعادوا زوجة ملكهم من السبي – على ما ورد في خبر آخر من اخبار الأصبهاني – فإن مصيرها لا يختلف عن مصير عاشقة ملك الفرس الغازي. فالملك الذي استعاد زوجته من السبي، "ربطها بين فرسين فركضا بها حتى قطّعاها قطعاً". هذا فيما أمر مروان ابن الحكم، الخليفة الأموي الثالث، بحفر بئر لتسقط فيه بنت أخيه يحيى، لأنها – في خبرٍ رابع من أخبار الأصبهاني- كانت تخرج مع امرأة أخرى، "فتركبان فرسين تستبقان عليهما حتى (تبينُ) خلاخيلهما" في كواحلهما. وهكذا سقطت (بنت أخ الخليفة الأموي) في البئر، فكانت قبرها".

شهوات خلاصيّة مهدويّة

على هذا "ليس القيد على شهوة النساء من النساء أنفسهن – يعلّق وضاح شرارة. فعلى قدر ما النساء داخل ورحم ليل، هنّ اشتهاء وشخوص واشتطاط. فلا تكاد تخرج المرأة (العربية والمسلمة) من نفسها وجسمها وأهلها (فور حيضها وبلوغها) حتى تجمع الى أقاصي الخارج"، هوىً ورغبة وعشقاً. لذا "لا مناص من تزويج البنت إذا بلغت، في الأهل الأقرب (...) أي في بني العمومة أو بني الخؤولة". ذلك ان "شريطة مسكة الاهل او القوم، العرب، (هي) حفظهم أصلابهم في ذراريهم، وماء الرجل في أرحامهم ونسائهم". و"سياسات الأهل والرئاسات" في ما يتعلق بالنساء، ترمي الى "حفظ العشير في العشير (...) فالناس (العرب) ينزلون الأرض جماعات وعصائب، (...) بطوناً وأفخاذاً (...) وأهالي، وينتسبون الى أرحامٍ (نسائية) والى أسماء ذكرية". اما في حال اشتطاط المرأة في شهوتها، وانحيازها "الى رغبه عدو بيتها وأهلها"، فإن هذا "لا ينطوي على انهيار النفس ودمارها وبوارها وحسب، بل يؤدي كذلك الى ارتفاع الفرق" والحدود، على مثال ما "أرّخت الروايات الخلاصية والمهدوية لعشية ظهور المهدي المنتظر (...) وامتلاء

الدنيا ظلماً، واشتباه الرجال بالنساء". وهذه حال "الهستيريا البلدية" التي اصابت حركة الشيخ سليمان البنهاوي الصوفية العامية ومريديه في الديار المصرية غداة استيلاء نابليون بونابرت على مصر. وهي الحال إياها التي اصابت الراهبة هندية واتباعها ومريدها في بلاد الموارنة اللبنانيين بين العام 1750 والعام 1779، في وقت اشتباك حالها وحال دعوتها ومريدها، بـ"خيوط الأحوال اللبنانية الاخرى ومنازعات الأسر والعائلات والنواحي والولاة والمطارنة والدول".

أبو نؤاس وبودلير

أبو نؤاس في "أشعاره الماجنة" جمع "قومه (الشعري والعنوي؟) من تقطيع الأواصر والعرى ومن العدوان على المعايير القومية، العربية الإسلامية، والإزراء بها". لذا "حمل الأعمال والكلام والاعتقاد والاخبار والاشياء والناس على التمويه والتزويج"، كي يَخرج ويُخرج ذلك كله "من حدّ السلطان، وهو حدّ العصبية والحرب والدين والتناسل وعمود الشعر، الى حدّ العيد". وذلك ليس أقلّ من "ثورة عامة على أركان حضارة عربية إسلامية كانت بعيدة عن التمكن" بعد. أي "في أواخر القرن الثاني للهجرة وعشية الحرب الأهلية العباسية الاولى". لذا يصف وضاح شرارة "عمل أبو نواس، اليوم، بالحداثة"، لأنه "رفع التهجين الى مرتبة مدرك من مدركات العقل الكثير الأوجه"، فيما "كان "إسلام الفقهاء يشحذ أركانه السنية واعتقاده قبيل إغلاق باب الاجتهاد". وقد تكون حال أبو نواس في التهجين، كحال شارل بودلير في نقده الفني وشعره أيضاً، على ما يستقرئ كاتب "ترجمة النساء" في تأويله "الأنيق الماجن" البودليري بصفته "أحد حدّي الحياة المعاصرية، وأحد ضديها". فالأنيق الماجن "يتقن فوق كل شيء السياحة في المدينة الكبيرة، ومخالطة العدد والكثرة، والاقامة بين ما يتمازج ويتمايل (...) ويهرب من غير أن يخلف أثراً". أما مدار "شهوته" فأن "يكون المرء غريب الدار وفي داره أينما حلّ" ونزل وارتحل، "على نحو ما ينشيء متعشّق النساء عائلته من كل الجميلات" المرئيات والمتوهمات.

أخيراً، "هذا علّة" ما عجزت المجتمعات العربية الإسلامية عن "اختباره"، إلا في المثالات والهوامات والحركات الهستيرية الخلاصية المدمرة، تلك التي تؤذن بنهاية العالم والزمان، أي بالجحيم أو الجنة، لا فرق. فالمجتمعات هذه اعتنقت الرعب من النساء وشهوتهن، عقيدة دينية وسنّة، فحملها رعبها هذا على الحجر على النساء في النسب والشرف والدم والأهل والسلطان. هكذا نكصت أو تخلفت مجتمعات العروبة والإسلام عن "الحداثة، فناً وأدباً وحياة"، تدبيراً وتنظيماً وسياسة. لذا تميد أركان عالم العروبة والإسلام، دائماً وأبداً، كما تميد اليوم، كأنها دائماً وأبداً على شفير نهاية العالم والزمان.

اعتنقت المجتمعات العربية والاسلامية الرعب من النساء وشهوتهن، عقيدة دينية، فحملها رعبها هذا على الحجر عليهن في النسب والشرف والدم والأهل والسلطان. لذا تميد أركان هذه المجتمعات كما تميد اليوم، كأنها دائماً وأبداً على شفير نهاية العالم والزمان.

ما أن تحيض البنت وتنتصب للزواج والولادة، حتى يخرجها أهلها منهم ومن بيتهم الى الربضّ، وهو الأرض حول المدينة. ولا مناص من تزويج البنت إذ بلغت، في الأهل والقوم، أي في بني العمومة او بني الخؤولة.

أبو نواس في أشعاره الماجنة، جمع قومه من تقطيع الأواصر والعرى ومن العدوان على المعايير العربية والإسلامية والإزراء بها. لذا أجرى الأعمال والكلام والاعتقاد والناس والأشياء على التمويه والتزويج، وأخرجها عن حدّ السلطان.